بعثَةُ النبيّ

صلى الله عليه وسلم

وبدء نُبُوَّته

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب
(سيدنا محمد رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم)
من الصفحة 509 حتى الصفحة 517

للشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين الحسيني
بناءً على توجيهات ولده
المهندس الشيخ
محمد محيي الدين سراج الدين
رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة
وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام
من موقعه الرسمي والوحيد
WWW.SRAJALDEN.COM
قسم: كتب الإمام
تحميل كتب الإمام وتحميل أبحاث مختارة

مدير الموقع:
الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

بعثته ﷺ وبدء نبوَّته

إن الله تعالى بعث سيدنا محمداً ﷺ رسولاً للعالمين ، على تمام أربعين سنة من عمره الشريف ، كما جاء ذلك في (الصحيحين) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاثَ عشْرة سنة يوحى إليه ، ثم أُمر بالهجرة ، فهاجر عشر سنين ، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة) وعلى ذلك الجمهور .

---

(١) انظر (شرح الزرقاني) ٣ : ٢٠٥ .

وقال الإمام السُّهيلي : هو الصحيح عند أهل السِّيَر والعلم بالأثر .

وقال الإمام النووي : هو الصواب . اهـ .

وتمام الأربعين إنما هو في شهر ربيع الأول ، وكان ذلك يوم الإثنين ؛ كما روى مسلم عن أبي قتادة أن النبي ﷺ سئل عن صوم يوم الإثنين ؟ فقال ﷺ : « ذلك يوم وُلدتُ فيه ، ويوم بُعثت فيه » .

وقال بعض العلماء : كان ذلك في شهر رمضان ، وذلك لأن بدء نزول القرآن كان في شهر رمضان ، قال الله تعالى : ﴿ شهرُ رمضان الذي أُنزِل فيه القرآن . . ﴾ الآية .

وكان ذلك في ليلة القدر من شهر مضان ، كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ فيكون بدء نبوته ﷺ على تمام أربعين سنة وستةِ أشهر .

وقد جمع المحققون بين القولين ـ كما ذكره الزرقاني وغيره ـ بأنه ﷺ نبِّىء بالرؤيا ـ أي : بدأ الوحي إليه ﷺ عن طريق الرؤيا ـ في شهر ربيع الأول على تمام أربعين سنة ، ثم أتاه جبريل عليه السلام في رمضان .

قال الحافظ الزرقاني : وحمل عليه بعضهم ـ حديث ـ « الرؤيا جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوة » لأن مدة الوحي كانت ثلاثاً وعشرين سنة ، فيها ستة أشهر منه ، وذلك جزء من ستة وأربعين . اهـ .

وقد روى الشيخان ـ واللفظ للبخاري ـ عن عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت : (أوّلُ ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي : الرؤيا الصادقةُ في النوم .

وفي رواية لهما : الرؤيا الصالحة[1] ؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءتْ مثلَ فلقِ الصبح .

ثم حُبِّب إليه[2] الخلاء ، وكان يخلو بغار حِراء ، فيتحنَّث فيه[3] ـ وهو التعبُّد ـ لياليَ ذواتِ العدد[4] قبل أن ينزِع إلى أهله ، ويتزوّدُ

---

(١) قال الحافظ الزرقاني : الرؤيا الصادقة : هي التي لا كذب فيها ، أو لا تحتاج لتعبير ، أو هي ما يقع بعينه ـ أي : كما رؤيت ـ أو ما يعبر في المنام اهـ .
وأما الرؤيا الصالحة : فهي أخص من الصادقة ، وهي ما تأتي بالبشرى ـ كما في (شرح) القسطلاني على البخاري .

(٢) أي : ثم إن الله تعالى حبب إليه الخلاء ـ أي : الخلوة ـ قال الخطابي : وذلك لأن الخلوة فراغ القلب ، وهي معينة على التفكر ، وبها ينقطع الإنسان عن مألوفات البشر ، ويجتمع قلبه ، ويجمع همه . اهـ .
وفي قولها : (ثم حبب إليه الخلاء) دليل على أن حبه للخلوة إنما هو بتحبيب من الله تعالى ، وليس ذلك عن أمر نفساني ، بل عن وحي إلهامي ، كما نبه على ذلك في (الفتح) .

(٣) التحنث : هو البعد عن الحنث ، وهو الإثم الذي كان عليه المشركون ، وذلك بالتعبد ، لأن التعبد سبب لإزالة الإثم .

(٤) هذا العدد المبهم وضحته رواية (الصحيحين) عن جابر : أنه ﷺ قال : « جاورت بحراء شهراً » ؛ وفي رواية ابن إسحاق عينت ذلك الشهر الذي كان يخلو فيه ﷺ ، وهو أنه شهر رمضان .
وقد ذكر ابن إسحاق أنه ﷺ كان يخرج إلى حراء في كل عام شهراً ، وذلك الشهر هو رمضان .

لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزودُ لمثلها [1] ، حتى جاءهُ الحق [2] وهو في غار حراء .

فجاءه الملك فقال له : اقرأ [3] .

قال : « ما أنا بقارىء [4] » ـ قال : « فأخذني فغطَّني ـ وفي رواية

---

(١) قال الزرقاني : فكان ﷺ يتزود لبعض ليالي الشهر ، فإذا نفد الزاد رجع إلى أهله ، فيتزود قدر ذلك .

قال : وفيه أن الانقطاع الدائم عن الأهل ليس من السنة ، لأنه ﷺ لم ينقطع بالغار بالكلية ، بل كان يرجع إلى أهله ، لضروراتهم ، ثم يرجع لتحنثه .

(٢) أي : الأمر الحق ، وهو الوحي ، وسمي حقاً : لمجيئه من عند الله .

(٣) فقال له الملك وهو جبريل اتفاقاً : اقرأ .

قال الحافظ الزرقاني : هذا الأمر لمجرد التنبيه والتيقظ لما سيلقي عليه ـ أي : ليتوجه إلى ما سيلقي عليه ثم يقرأ ـ أو على بابه من الطلب ـ أي : طلب منه القراءة ـ قال : فهو دليل على تكليف مالا يطاق في الحال ، وإن قدر عليه بعد . اهـ .

(٤) جاء في رواية « قلت » وفي رواية « فقلت : ما أنا بقارىء » ، قال الحافظ في (الفتح) : (ما) فيه ـ أي : في قوله :« ما أنا بقارىء » ـ نافية ، إذ لو كانت استفهامية لم يصلح دخولها على الباء ، وإن حكي عن الأخفش جوازه ، فهو شاذ ، والباء ـ في : بقارىء ـ زائدة لتأكيد النفي ، أي : ما أحسن القراءة فلما قال ذلك ثلاثاً قيل له : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ ـ أي : لا تقرؤه بقوتك ولا بمعرفتك ، لكن بحول ربك وإعانته ، فهو يعلمك كما خلقك وكما نزع عنك علق الدم ، ومضمر الشيطان في الصغر ، وعلم أمتك حتى صارت تكتب بالقلم بعد أن كانت أمية ـ ذكره السهيلي . اهـ .

قال الزرقاني : وقيل : (ما) استفهامية ، وضعفه عياض وابن قرقول بدخول الباء في خبرها ، وهي لا تدخل على ما الاستفهامية .

الطبراني : فضمَّني[1] ـ حتى بلغ مني الجَهد ، ثم أرسلني .

فقال : اقرأ .

قلت : ما أنا بقارىء ـ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني .

فقال : اقرأ .

قلت : ما أنا بقارىء ـ فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني .

فقال : ﴿ اقرأ باسمِ ربكَ الذي خلق . خلق الإنسان من عَلَق . اقرأ وربُّك الأكرمُ . الذي علَّم بالقلم . علَّم الإنسانَ مالم يعلم ﴾» .

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجُف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : « زمِّلوني زمِّلوني » فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْع ، فقال

قال : وأجيب بأن رواية أبي الأسود ، عن عروة : « كيف أقرأ » ؟ وابن إسحاق : عن عبيد بن عمير : « ماذا أقرأ » ؟ ـ دلتا على أنها استفهامية ، وقد جوز الأخفش دخول الباء على الخبر المثبت ، وجزم به ابن مالك في ـ قولك : ـ بحسبك زيد ، فجعل الخبر حسبك ، والباء زائدة . اهـ .

(١) ومعنى غطني : ضمني .

وهذه الضمات فيها إفاضات وإفراغات أسرار وأنوار إلهية ، وعلوم ومعارف ربانية ، نزل بها جبريل عليه السلام من لدن حكيم عليم ، على وجه يعم النفس والقلب والروح .

وقد قال ابن عباس : ضمني رسول الله ﷺ إلى صدره الشريف ﷺ وقال : « اللهم علمه الكتاب » وبذلك فتح على ابن عباس وأفيض عليه .

لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ : « لقد خشيتُ على نفسي »[1] فقالت له خديجة : كلاّ ـ والله ـ ما يُخزيك الله أبداً ، إنك لتصِلُ الرحم ، وتصدُق الحديثَ ، وتحمِل الكلّ[2] ، وتَقْري الضيفَ ، وتُعين على نوائب الحق[3] .

فانطلقتْ به خديجة حتى أتت به ورقةَ بن نوفل بنِ أسد ، ابن عمّ خديجة ، وكان أمرأً تنصَّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب .

ـ وفي رواية لمسلم : فكان يكتب الكتاب العربي .

وفي رواية : ويكتب من الإنجيل بالعربية [4] ـ وكان شيخاً كبيراً قد

---

(١) أي : لقد خشيت على نفسي أن لا يتحمل جسمي ثقل الوحي ، وذلك لأن للوحي ثقلاً لا تقدر له الأقوياء ، إلا من أمده الله تعالى بمدد النبوة وقوتها ، وخصوصاً الوحي المحمدي ، فإنه من أعلى المراتب ـ قال الله تعالى : ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ وروى البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت : (إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على ناقته فتضرب بجرانها من ثقل ما يوحي إليه . وقد نزل عليه الوحي يوماً وهو على ناقته ، فقعدت به الناقة) .

(٢) أي : الضعيف الذي لا يستقل بأمره .

(٣) أي : تعين على دفع الحوادث والكوارث الجارية على الخلق ، بتقدير الحق ، وقيل : النوائب جمع نائبة ، وهي الحادثة ، وإنما أضيفت إلى الحق ، لأن النائبة قد تكون في الخير وقد تكون في الشر اهـ (مرقاة) .

(٤) قال الحافظ : والجميع صحيح ، لأن ورقة تعلم اللسان العبراني ، والكتابة العبرانية ، فكان يكتب الكتاب العبراني ، كما كان يكتب الكتاب العربي ، لتمكنه من الكتابين واللسانين . اهـ .

عمي .

فقالت له خديجة : يا ابنَ عم !اسمعْ من ابن أخيك .

فقال له ورقة : يا ابن أخي ! ماذا ترى ؟

فأخبره ﷺ خبرَ ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس [1] الذي نزَّل الله على موسى ، يا ليتني فيها جَذَعاً ! ليتني أكونُ حيّاً إذ يخرجك قومك !

فقال رسول الله ﷺ : « أوَ مخرجيَّ هم ؟ » .

قال : نعم ، لم يأتِ رجل قطُّ بمثل ما جئت به إلّا عودي ، وإنْ يُدركني يومك أنصرْك نصراً مؤزَّراً .

ثم لن ينشَب ـ أي : لم يلبث ـ ورقة أنْ توفي .

وفتر الوحي) أي : انقطع الوحي مدة من الزمن ، مقدرة بسنتين ونصف ، وقيل ثلاث سنوات .

ثم أنزل الله تعالى عليه بعد فترة الوحي أوائل سورة المدثر .

كما جاء في (الصحيحين) عن جابر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « جاورتُ [2] بحراء

---

(١) الناموس : صاحب السر ـ والمراد به جبريل عليه السلام ، لأنه صاحب سر وحي الله تعالى إلى رسله وأنبيائه ، ويسمى الناموس الأكبر .

(٢) أي : أقام فيه ـ والفرق بين الجوار والاعتكاف ـ كما قال ابن عبد البر وغيره ـ : أن الاعتكاف لا يكون إلا داخل المسجد ؛ وأما الجوار فإنه قد يكون خارجه ، وذلك لم يسمه ﷺ اعتكافاً ، لأن حراء ليس من المسجد .

شهراً [1] فلما قضيت جِواري هبطت ، فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم أرَ شيئاً ، ونظرتُ عن شمالي فلم أرَ شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً ـ أي : جبريل ـ فلم أثبت له » .

وفي رواية « فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء ، جالس على كرسيّ بين السماء والأرض ، فرعبت منه ـ فرجعت » .

وفي رواية :« فجئت ـ إلى أهلي ، فقلت : زمّلوني زملوني ـ فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها المدثِّر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرُّجزَ فاهجر ﴾ » .

فقام ﷺ ينذر الناس ويدعوهم إلى الله تعالى .

وقد جرت عادة الله تعالى مع حبيبه الأكرم ﷺ أنه يناديه في القرآن الكريم بالصفات الكريمة ، التي تؤذن بالرتبة العظيمة :

كقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً . . ﴾ الآية .

وقوله تعالى ﴿ يا أيها الرسول لا يَحزُنْك الذين يسارعون في الكفر . . ﴾ الآية .

كما أنه سبحانه يناديه بالصفات المشتقة من الحال التي هو عليها ، تلطيفاً وتأنيساً له ﷺ :

---

(١) أي : في مدة الفترة ، غير الشهر الذي نزل عليه فيه جبريل بأوائل سورة اقرأ ؛ ففي مرسل عبيد بن عمير عند البيهقي ، أنه كان يجاور في كل سنة شهراً ، وهو رمضان . اهـ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ياأيها المزمِّل ﴾ وقوله : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ ـ وفي ذلك إعلان بفضل هذا الرسول الكريم على سائر العالمين ﷺ .

ولم ينادِه باسمه ، كما نادى الأنبياء والرسل بأسمائهم ، حيث قال سبحانه : ﴿ قال يا آدم أَنبئهم بأسمائهم . . ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ قلنا يا نوح اهبِطْ بسلامٍ منا . . ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ يا إبراهيمُ أعرِضْ عن هذا . . ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ يا موسى لا تَخفْ . . ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليَّ . . ﴾ الآية .